

فقه الحضارات قوة الفكر وفكر القوة

بواعث الحضارات

للحضارة مبعثان لا ثالث لهما. أولهما قوة الفكرة، وثانيهما فكر القوة. هما مبعثان على النقيض في كل مقارنة. فلكل فلسفته الخاصة. فأما الفكر فمقدم في الأول، ومن عصارته تربو القوة. وأما القوة فهي أس الثاني، ولها يدعن الفكر ترغيباً أم ترهيباً.

لم تُحرّم حضارة، على ما أعلم، من ثنائية الفكر والقوة. بيد أن ثبات الحضارة رهن بنصيبها من كليهما. رانت فيها الفكرة على القوة، أم طغت القوة على الفكرة، غنمت نوائب الزمان وقضت أمراً كان محزوناً. فاندثرت الحضارة، وغدت دائراً أم منسوخاً طي النسيان. توازعاها مناصفة الفكر والقوة، أدعن لها الزمان رداً طويلاً ودان لها الداني كما القاصي طوعاً وكرهاً.

حضارة الفكر وحضارة القوة

الفكرة راحة مُتعب، ولقيّة مهموم. أما القوة فشهوة مُلك. الفكرة سحر، كما القوة منطق. سحر الفكرة محرّك نفس ومنهاج عمل. وأما منطق القوة فكثير من إذعان وقليل إحسان. الفكرة رشيقة تمتطي النسيم، تعبق في المكان. تصل إلى القاصي والداني دون عناء. هي تخزن في ذاتها طاقة انتشارها. وأما القوة فتقيل وطوها، مجوج مذاقها. تحشد لها جيشاً من البواقين في سعيها الدائم لتطويق السوح واحتلال الميادين.

فأما حضارة الفكر فأول القول فيها فكرة، لكنها فكرة ليست كباقي الأفكار. فكرة ذات سطوبة ونفوذ؛ تستعمر الإنسان. تملأ منه العقل كما الروح. تتسرب عميقاً في وجدانه، تُشكل حافظته وجلّ وعيه. ما إن يتشرّبها اللاوعي خاصته، تك هي المحرك ليوميّاته وتفاصيل حياته. طال بها وبه العمر، امتشقت عوداً وفاضت نوراً وسحراً. فيتسلل مسكوب عقبها في الأرجاء؛ تستعمر المكان. تسري فيه كما الرعشة حين تجتاح البدن وتراقص البنين. تعمّر الساح كنسيم عليل في أصباح نيسان، لمّا يطوي السهوب ويغمر الوديان.

وأما حضارة القوة فتستفتح في المكان استعماراً. تُنشب لها في الأرض مخالب، وتدس لها في المواجه مزارع. علا أنين المكان وضجت السوح ضجراً، أحكمت قبضتها وأثبتت في الأرض أقدامها. حتى إذا ما دلت الأرض لها، أخذت بناصية الزمان ودجنت إنسانه على ما تحب وترغب. إذا هي تستهدف المكان، ميدان فعلها، أولاً. تواطأ معها الزمان، انتهت بالإنسان فشكّلت وعيه على ما يلائمها ويديم سطوتها. بذرت، سقت، رعت حرثها وزرعها، يك لها ما أرادت نفوذاً وثراءً وديمومةً.

خلاف المقاصد

الأولى السماء قصدتها، والثانية في الأرض مُنتهاها. لا تنفك الأولى تبحث في المعارج، ولا تنقطع الثانية تستكشف المنعرجات. تبحث الأولى في الأصول استشرافاً للنهايات، وتبحث الثانية في الأصول ذاتها لكن تكريساً للذات. تجهد الأولى في تحسس الوجود كشفاً للبصائر، وتنشغل الثانية في نقب هذا الوجود كشفاً للخزائن.

خلاص الإنسان وجع الأولى، وشهوة الملك للثانية شغف. الإنسان، في الأولى غاية وفي الثانية قربان. الإنسان، في الأولى روح صمدية ونفس سرمدية، وفي الثانية عقل يشقى وجسد يفنى. الإنسان، في الأولى حرية مسؤولة وفي الثانية ما شئت وشاء. الإنسان، في الأولى عقل مفارق الجسد وفي الثانية عقل نيمه الجسد. الإنسان، في الأولى غريزة مصفودة وفي الثانية الغريزة حاكمة. الأولى أسلمت للفكر قياداً، والثانية أبت بغير الغريزة تسليمًا.

بين همّ المعاشِ و وهمّ المعاشِ

لا تسلى الأولى عن همّ المعاشِ باعتباره جسر وصولٍ، بينما تحشدُ الثانيةُ جُلّ قواها في فلسفةِ هذا المعاشِ وتعويمه حتى غدا هو الغايةُ. تنظرُ الأولى إلى معاشِ الإنسان كلازمة حياةٍ، تصبيرة انتظارٍ، وطاقة عبورٍ إلى غير مكانٍ. بينما تجعلهُ الثانيةُ غاية الغاياتِ، لأجلها كانَ الإنسانُ ولأجلها يكونُ.

في الواقع، وتحقيقاً لمكاسبٍ محض ماديةٍ، لا تنفكُ الثانيةُ في تضخيم حاجاتِ الإنسان المعاشيةِ. كما في ابتكارٍ جديدٍ على الدوام. تستهلكُ العقولَ، ولا ضيرَ في النفوسِ أيضاً، لتسويق رؤاها الخبيثةِ. تلبسُ المُحدثَ المُضادَّ لبوسَ لازمة الحياةِ. تُدسُّ السمَّ في الدسمِ. فيلتبسُ على ضحاياها ما هو ضروريٌّ لازمٌ مع ما هو مُحدثٌ ضارٌّ في أحيانٍ كثيرةٍ. ثمَّ تعرضُ نفسها في نهاية المطافِ كمنقذٍ يلبّي تطلّعاتِ الإنسان الجديدةِ. هي حلقةُ نارٍ لا حدودَ لهما. حاجاتُ الإنسان الموهومة في تمددٍ لا ينتهي، والإمكاناتُ الماديةُ وإن تعاطمَ شأنها لا تفي الغرضَ في حالٍ من الأحوالِ. والنتيجةُ الحتميةُ صراعٌ وصدامٌ وسوءٌ خُلِقَ وخُلِقَ.

حتميةُ الفناءِ

اختلفتِ الحضاراتُ في جوانبِ شتى، واجتمعت جميعاً على حتميةِ الفناءِ. طالَ بها المُقامُ أم قصرَ، تنتهٍ كما دوماً نقشاً على جدارِ الزمانِ. تسامقَ لها صرحٌ أم أتضع، تستجلُ ردماً تُعرّشُ عليه طحالبُ النسيانِ.

للقولِ في حتميةِ فناءِ الحضاراتِ مبرراته الموضوعيةُ. فالقصورُ خلةٌ في أساسِ ومبعثِ الحضاراتِ من فكرٍ أو قوّةٍ؛ وهذه عواملُ ذاتيةٌ. أضف إليها خلافَ المنظورِ وتعاكسَ المصالحِ داخلَ الصرحِ الحضاريِّ نفسه؛ وهذه أسمىها بالعواملِ الداخليةِ. أخيراً، تُشكّلُ الأفكارُ الجديدةُ والقوى الصاعدةُ في غير مكانٍ من هذا العالمِ تهديداً وجودياً يقضُ مضاجعَ القديمةِ الهرمة؛ وهذه هي العواملُ الخارجيةُ.

العواملُ الذاتيةُ .. قصورُ المباحثِ

فالحضارةُ فعلٌ حركةٌ الحركةُ فعلٌ مُستهلكٌ للطاقةِ. والطاقةُ إلى نفاذٍ وإن انتفخَ يوماً خزينها. وسواءً عليها أكانت تداعياتِ فكرٍ أم مُخرجاتِ قوّةٍ فجدوئها إلى خبوٍ وطاقتها إلى نفاذٍ. هي طبيعةُ الأمورِ كما علمتها. هو القانونُ الناظمُ لحركةِ الأشياءِ. فكلُّ مُتحركٍ إلى سكونٍ، وإلا فعودٌ على بدءٍ.

الأفكارُ طاقةٌ تغييرٍ وتحريكٍ، وفي ذلك هلاكها. والقوّةُ فعلٌ اغتصابٍ للفكرِ كما الثروةُ، وفي ذلك مقتها. فأما الأفكارُ فتنتقلُ الإنسانَ من حالةٍ قلقٍ إلى حالةٍ جديدةٍ، سيمتها القلقُ أيضاً. حالةٌ، إنسانها مشغولٌ بهواجسٍ وشواغلٍ مُحدثةٍ طارئةٍ. الأفكارُ القديمةُ التي لاعت الإنسانِ الحالةِ الأولى، هي حتماً دونَ تطلّعاتِ إنسانِ الثانيةِ. هي قاصرةٌ عن ملاقة حاجاتِ الإنسانِ الجديدِ. هي عاجزةٌ عن بلسمه أوجاعه ولبدة الحالةِ الجديدةِ، فضلاً عن طموحاتِهِ المُتناميةِ. للحالةِ الجديدةِ شروطها وقوانينها الموضوعيةُ. وتالياً، كما منطفاً، لها أفكارها الخاصةُ بالضرورة.

في هكذا منعطفٍ حضاريٍّ، على الفكرِ أن يختارَ بين فناءٍ مُحدقٍ أم تحديثٍ مأمولٍ في الرؤيةِ والمنظورِ. هو مطبٌّ حضاريٌّ واقعٌ لا محالةٍ. فإمّا تسليمٌ واستسلامٌ للقديمِ البالي، وتالياً رضى بقضاءِ الله وقدره. وإمّا ثورةٌ على المفاهيمِ القديمةِ تحديثاً وتطويراً، فيكونُ الزمانُ حليفَ الفكرِ.. لكن إلى حين!

فالأفكارُ، وقودُ الحداثةِ، إلى نفاذٍ أيضاً لأنها منتوجُ عقلٍ قد توحّد. فالعقلُ المهيمُ على قيادِ الحضارةِ ثابتٌ لا يتبدّلُ، وهذه نقيضةُ العقلِ قلقٌ على مبادئه ونهجه، وهذه خلةٌ لا طاقةً له بكبحها. قلقٌ على مخرجاتِ فكره، ضنينٌ بها أن تنقضي. أفكاره، بُنياته، أصبحت بعد أن اشتدَّ عودها حاكمةً له. هو الآن مغرماً بها إلى درجة الانقيادِ. كيف لا؟ وهي قد أثبتت جدارة حياةٍ وبنّت صروحَ مجدٍ حاكمت السماءَ قوّةً ورفعةً. لا يستطيعُ العقلُ وإن تعقلَ، ورفع مناسيبِ المرونة والكفاءة لديه، تغييرَ آلياتِ البحثِ خاصيتهِ على نحوٍ جذريٍّ. هو قادرٌ على التّطويرِ والتّحديثِ لكن ضمن قيودٍ لا يتعداها، بحيث يبقى على الدوامِ شبيهة ذاته.

كما ويعملُ العقلُ المُسيطرُ على تدجينِ العقولِ ضمن نطاقِ السيطرةِ على منهجيةِ فكرٍ واحدةٍ. فيصبحُ الجميعُ واحداً، وإن باعدت بينهم الأيامُ. بالتالي، نكونُ أمامَ منظومةٍ فكريةٍ واحدةٍ لا تجودُ إلا بالمتشابهاتِ الفكريةِ. فيظهرُ العجزُ ويتّظهُرُ القصورُ البنيويُّ في أساسِ وجودِ الحضارةِ نفسها. وهذا ما أسمىه بتوحّدِ العقليةِ.

ويصحُّ في القوَّة ما صحَّ في الفكر. فجانِبُ لا يُستهانُ به من حضارة القوَّة قائمٌ على الفكر. هو فكرٌ خاصٌّ مُدجَّنٌ، يمدُّها الوسيلةُ تحقيقاً لغاياتها الدنيئة في جميع الثروة ومزيدٍ من القوَّة. بيدَ أنَّ أزمة القوَّة ثلاثية الأبعاد. فالأفكارُ إلى نفاذٍ، وهذا ما سبق بيانه، كما الثروة إلى نضوبٍ قريبٍ. فيكونُ انخفاضُ منسوبِ القوَّة تحصيلاً لا مفرّاً من مواجهته.

فخزينُ الأرضِ ومستوعباتُ الثروة قد نصَّبَ أو يكادُ. هي الآنُ دونَ الحاجاتِ المتعاطمة للقوَّة النهمية. مُحركاتُ القوَّة الهادرة، جنودُها، بواقوها، خدمُها، وحتى ضحاياها وخصومُها، جميعاً مستهلكٌ للثروة ضرورةً حياة. يجهدُ الفكرُ بحثاً وتنقيباً عن مصادرٍ إضافية للطاقة. ينجحُ قليلاً ويفشلُ كثيراً. ويبقى الإفلاسُ حتميةً، على القوَّة تحمُّلُ تواليها.

العاملُ الداخليُّ.. الطابورُ الخامسُ

نشوءُ فكرٍ أم غطرسةُ قوَّة، لا يُعنى الفكرُ كما القوَّة كثيراً بخصوصيتهما الأقربين. وهم، على ما هم عليه من حقٍّ أو باطلٍ، من خطأٍ أو صوابٍ، قوَّةٌ تدميرِ آجلةٍ لما هو قائمٌ. هما الآنُ في شغلٍ عن هذه القوَّة الكامنة، لأنَّه لا فعلَ لها وإن كانَ همسُها مسموعاً. لكنَّ هذا الضعيفُ سيصبحُ ذاتَ مساءٍ معولٌ هدمٍ وفعلٌ فناءٍ لهيكلِ الفكرِ وعرشِ القوَّة.

كما دوماً، تظهرُ فئةٌ محليةٌ من أصحابِ الرؤى والمصالحِ المختلفةِ عن تلكِ المسيطرة والمهيمنة من فكرٍ أو قوَّة. هي فئةٌ لا تعدُّ الصبرَ كما الانتهازية. دؤوبةٌ في عملها، لا تتفكُّ ترمي الدلالاتِ على فسادٍ ما هو قائمٌ. تنتشرُ أجواءُ الشكِّ والحيرة في صوابية ما يطرحه الفكرُ أو تفرضه القوَّة. تُقلُّ من أهمية الجميلِ البينِ، وتتصرَّفُ في القبيحِ الشائنِ تهويلاً وتضخيماً. تُلازمُ الحقَّ حيناً، وتهجره غيبَ الطلبِ. تحتجبُ عندَ الذرى، وتلمعُ عندَ أفولِ الفكرِ ومغيبِ القوَّة. فيكونُ لها جُلُّ الأثرِ في نقضِ القائمِ، دونَ أن تكونَ بالضرورةً بديلاً له أم جزءاً من هذا البديلِ. فالمصالحُ الجِدُّ خاصةً والرؤى الجِدُّ ضيقةٌ لا تصلحُ فلسفةً إلا لطابورِ خامسٍ، لا يملُ. ينبعُ عندَ كلِّ صباحٍ كما في كلِّ مساءٍ، حاملاً لواءَ الخلافِ والاختلافِ مع ما هو سائدٌ من فكرٍ أو قوَّة.

العاملُ الخارجيُّ.. نشوءُ فكرٍ جديدٍ أم قوَّةٌ جديدة

قد ينجحُ الفكرُ، كما القوَّة، في إحكامِ الصبِّطِ والسيطرة على الأرضِ، كلَّ الأرضِ، ولعهودٍ طويلةٍ ربَّما. بيدَ أنَّ رياحَ التغييرِ لا شكَّ قادمةٌ. فالعالمُ شاسعٌ فسيحٌ، والأرحامُ ولادةٌ. وهمومُ الناسِ، هواجسُهم، وتطلُّعاتُهم أكبرُ من أن يُحيطَ به فكرٌ واحدٌ أو يجمعها سلطانٌ أوحدٌ مهما علا الأولُ وتجبرَ الثاني.

القوَّةُ الناشئةُ الفتيةُ، من فكرٍ أم محضِ قوَّة، ستصلُ إلى حدودِ التماسِ مع المركزِ الحاكمِ. هي مسألةٌ وقتٍ لا أكثرَ، ويكونُ الصدامُ هو الحدثُ الفصلُ. ستخوضُ القوَّةُ الصاعدةُ امتحانَ الجدارةِ مع المنظومةِ الحاكمةِ القديمة. فإمَّا نصرٌ مؤزَّرٌ، فأقولُ حضارةً وإشراقاً أخرى جديدةً. وإمَّا هزيمةٌ، فيكونُ لها شرفُ المحاولةِ. ويكونُ على المنظومةِ الحاكمةِ الاستعدادُ، ولو بعدَ حينٍ، لمعركةٍ وجودِ جديدةٍ مع قوى صاعدةٍ جديدةٍ.

أخيراً،

تفرَّغُ الأفكارُ من ملحِ الأرضِ، وقد تنسلَّ من جفنيِّ الحلمِ. وتربو القوَّةُ في قبضة الطُموحِ، وتتكئُّ أحلامُ الرجالِ. خلاصُ الإنسانِ غايةُ الفكرِ، والخلاصُ معارجُ. وشهوةُ الملِكِ ناموسُ القوَّة، والشهواتُ مزلقُ. الفكرُ طاقةٌ فعلٍ، والقوَّةُ محرقةُ أفعالٍ. الفكرُ يرشِّحُ القوَّة، والقوَّةُ تعتصرُ الفكرَ. الفكرُ منقأله الإنسانُ، والإنسانُ مجبولُهُ الضعْفُ. والقوَّةُ عدأها الزمَنُ، وللزمانِ صولاتٌ وجولاتٌ. في الفكرِ قصورٌ، وللقوَّةِ عطالتُها. الفكرُ مبعثُ حضارةٍ، كذلك هي القوَّة. فعلٌ عطالةٌ أم قصورٌ وظيفيٌّ، الاثنانِ إلى زوالٍ.. عرشُ الفكرِ ومملكةُ القوَّة.

(* في سياقاتٍ مختلفة، أنصحُ بقراءة المقالاتِ التالية:

- [هل يفيدُ التداخُلُ الجراحيُّ الفوريُّ في أدبَاتِ النخاعِ الشوكيِّ وذيلِ الفرسِ الرضِيَّة؟](#)
- [النقلُ العصبيُّ، بين مفهومِ قاصرٍ وجديدٍ حاضرٍ](#)

[The Neural Conduction.. Personal View vs. International View](#)

في النقل العصبي، موجات الصَّغَطِ العاملة	Action Pressure Waves	
في النقل العصبي، كمونات العمل	Action Potentials	
وظيفة كمونات العمل والتيارات الكهربائية العاملة		
في النقل العصبي، التيارات الكهربائية العاملة	Action Electrical Currents	
الأطوار الثلاثة للنقل العصبي		
المستقبلات الحسية، عبقرية الخلق وجمال المخلوق		
النقل في المشابك العصبية	The Neural Conduction in the Synapses	
عقدة رانفييه، ضابطة الإيقاع	The Node of Ranvier, The Equalizer	-
وظائف عقدة رانفييه	The Functions of Node of Ranvier	
وظائف عقدة رانفييه، الوظيفة الأولى في ضبط معايير الموجة العاملة		
وظائف عقدة رانفييه، الوظيفة الثانية في ضبط مسار الموجة العاملة		
وظائف عقدة رانفييه، الوظيفة الثالثة في توليد كمونات العمل		
في فقه الأعصاب، الألم أولاً	The Pain is First	-
في فقه الأعصاب، الشكل.. الضرورة	The Philosophy of Form	-
تخطيط الأعصاب الكهربائي، بين الحقيقي والموهوم		-
الصدمة النخاعية (مفهوم جديد)	The Spinal Shock (Innovated Conception)	
أدبيات النخاع الشوكي، الأعراض والعلامات السريرية، بحث في آليات الحدوث	The Spinal	-
Injury, The Symptomatology		
الرَّمع	Clonus	
اشتداد المنعكس الشوكي	Hyperactive Hyperreflexia	
اتساع باحة المنعكس الشوكي الاشتدادي	Extended Reflex Sector	
الاستجابة ثنائية الجانب للمنعكس الشوكي الاشتدادي	Bilateral Responses	
الاستجابة الحركية العديدة للمنعكس الشوكي	Multiple Responses	
التنكس الفاليري، يهاجم المحاور العصبية الحركية للعصب المحيطي.. ويعف عن محاوره الحسية		-
Wallerian Degeneration, Attacks the Motor Axons of Injured Nerve and		
Conserves its Sensory Axons		
التنكس الفاليري، رؤية جديدة	Wallerian Degeneration (Innovated View)	
التجدد العصبي، رؤية جديدة	Neural Regeneration (Innovated View)	
المنعكسات الشوكية، المفاهيم القديمة	Spinal Reflexes, Ancient Conceptions	
المنعكسات الشوكية، تحديث المفاهيم	Spinal Reflexes, Innovated Conception	
خُلقت المرأة من ضلع الرجل، رائعة الإحياء الفلسفي والمجاز العلمي		
المرأة تقرر جنس وليدها، والرجل يدعي!		
الروح والنفس.. عطية خالق وصنعة مخلوق		-
خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس.. في المرامي والدلالات		-
تفاحة آدم وضلع آدم، وجهان لصورة الإنسان.		
هؤلاء.. هذه		-
سفينة نوح، طوق نجاة لا معراج خلاص		-
المصباح الكهربائي، بين التجريد والتنفيذ رحلة ألف عام		-
هكذا تكلم إبراهيم الخليل		-
فقه الحضارات، بين قوة الفكر وفكر القوة		-

العِدَّةُ وَعِلَّةُ الاختلاف بين مُطَلَّقةٍ وأرْملةٍ ذاتِ عفافٍ
تَعَدُّ الزَّوْجَاتِ وَمَلِكُ اليمِينِ.. المنسوخُ الأجلُ
التَّقْبُ الأَسْوَدُ، وفرضيَّةُ النِّجْمِ السَّاقِطِ
جُسيمُ بار، مفتاحُ أحجِّيَّةِ الخلقِ



٢٠١٩/٦/٣٠